الغرب والإسلام في أطروحة صدام الحضارات
بحث في مفارقات النظرية

د/ مصطفى حنفي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تطوان ــ المغرب

تمـهيد :

أعتقد أنه من المفيد تدشين القول في موضوع هذه الورقة بتحديد معالم الإشكال الذي تطرحه وبيان منطلقاتها العامة .

وأول الخطو في هذا القصد ، هو أن تسمحوا لي أن أنطلق من اقتراح نظري أعتقد أنه يمتلك قدرا واسعا من التعميم في دائرة النقد الحضاري العربي المعاصر. ومفاده : أن الباحث المهتم بنظريات تفسير الحضارات ونهاية التاريخ . والمنشغل بظواهرها وقضاياها ومفاهيمها الكبرى سيجد نفسه مضطرا إذا هو أراد أن يتعرف على مكامن الوهن في تضاعيف هذه النظريات التي أصبحت عنوانا لنظرية صدام الحضارات مع سمويل هنتنغتون ، ويصوغ حدودا فلسفية وابستمولوجية للنموذج العلمي الذي يعتمده هنتنغتون نفسه في تفسيره لظاهرة الصراع . إلى أن يلتمس لمداخله النقدية سندا من الشروط التي وضعها توماس كيون في كتابه " بنية الثورات العلمية " عن معيار البراديم أو الإبدال " .

وهدف هذه الورقة هو نقد وتحليل أبعاد هذا التخارج الذي يتم الصياغة العلمية لنظرية صدام الحضارات بسمات المفارقة والتناقض ، وتحديدا تبحث هذه الورقة عن مدى تماسك Coherence. هذه النظرية علميا إذا ما طبقت عليها معايير البراديم Paradigm أو النموذج العلمي الذي يعتمده نتنغتون نفسه ، ويزعم [هنتنغتون] بأن مقترحه Hypothese حول صراع أ تصاد الحضارات Clash of Civilizations هو نظرية علمية تستوفي كل الشروط التي وضعها توماس كون Khun في كتابه عن بنية الثورة العلمية [Structure of Scientific Revolution. سأقدم الحجج في ورقتي هذه لأثبت بأن النظرية التي يقدمها هنتنغتون لا تستوفي الشروط التي يضعها كون النظرية

العلمية وهي أشبه بتركيبة تنظيرية تقريبية أركانها الأساسية منظومة من الاستعارات والتعميمات التأملية. وسأبين بأنها كنظرية علمية فهي غير متماسكة وغير اقتصادية وعاجزة عن تفسير ظاهرة الصراع في مقترح صراع الحضارات إذ تسمح بظهور الصراع ونقيضه أي الحوار بين الحضارات وبالتالي تفقد أية قيمة تفسيرية أو تعليلية . وستقدم دراستي الأسباب التي تقودني إلى هذه الاستنتاجات .

الوضع الإشكالي لأطروحة صدام الحضارات :

يعتبر هنتنغتون أن نظريته التي طرحها في كتابه هي اقتراح أو مقترح علمي وبالتالي يجب أن تؤخذ من هذا المنظار ، ولما كانت هناك نظريات متعددة حول النظريات العلمية الشائعة في فلسفة العلوم ، فإنه يستخدم الأسس النظرية التي تحدث عنها توماس كون (Thomas Kuhn) في كتابه بنية الثورة العلمية 2 عن النظرية العلمية التي هي نموذج أو براديم (Paradigm) له عدة مواصفات منها : أن النظرية المقترحة يجب أن تبدو على أنها أفضل من سائر النظريات المناوئة الأخرى، حتى وإن لم تكن تستطع تفسير كل الحقائق التي تدخل ضمن نطاقها. ويعتقد هنتنغتون نظريته يمكنها أن تفسر الصراع الدائر بين الحضارات في العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وزوال الحرب الباردة كما أنها تتميز عن النظريات الأخرى بمقدرتها على التكهن (Prediction) بحدوث أحداث لا يمكن التكهن بها بشكل أفضل عن طريق النظريات الأخرى . ويمثل على تلك القدرة التكهنية الكامنة في نظريته ، بالتكهن بحدوث صراعات بين الحضارات ، ومنها الصراع بين حضارة العرب والإسلام .

سأفترض أن نظرية هنتنغتون بدءا تستوفي شروط البراديم الذي يذكره كون ، وسأفترض أيضا أن براديم كون نفسه صحيح نظريا ، وبالتالي يكون ضروريا على هنتنغتون أن يفسر كيف يظهر الصراع داخل المنظومة النظرية التي ينادي بها ، قبل أن يطبقها على الحضارات. لنأخذ مثلا نظرية ماركس حول صراع الطبقات فلكي يتحدث ماركس عن صراع الطبقات احتاج إلى نظرية ميتافيزيقية لكي يفسر من خلالها كيف يظهر صراع

الطبقات ، وما يفسر صراع الطبقات هي حتمية التاريخ المادية أو الجدلية المادية التي تضمن حتمية ظهور الصراع الطبقي عبر التاريخ . وحددت النظرية العوامل التي تؤدي بالضرورة إلى ظهور هذا الصراع ، وانعدامها يؤدي بالضرورة إلى انعدام الصراع .

إذن فما هي العوامل التي تؤدي ضرورة إلى ظهور الصراع أولا ، ومن ثم الصراع الحضاري في نظرية هنتنغتون ؟ لنأخذ مثالا توضيحيا آخر من تاريخ العلوم عند العرب . لقد تكلم ابن خلدون في نظريته عن نشوء العمران عن الصراع العصبي أو صراع العصبيات . فالصراع في نظره حتمي ، كما هو الحال عند ماركس ، ولكن دوافع الصراع ليست عوامل تاريخية مادية كما قال ماركس وإنما طبعية ، أي هي في الإنسان بالطبع ، أو كما ينادي فرويد واريك فروم وغيرهم من علماء النفس المعاصر عن غريزة العدوان التي هي نفسية أو بسيكولوجية . الإنسان في نظر ابن خلدون مطبوع على العدوانية أو العدوان ولا يزجره ويضعه ضمن حدوده سوى وازع واحد هو الملك ، ولكي ينشأ ملك يجب ضرورة أن يتحد أبناء العصبية الواحدة وراء شخص يضفي الوحدة على الجماعة ويعطيها القوة ويوجهها للسيطرة على العصبيات الأخرى . فمتى اجتمعت هذه العوامل أدت بالضرورة إلى ظهور الملك وإن زالت أدت إلى زوال الملك حتما ، فالحتمية (Determinism) عند ماركس واب خلدون تفسر ظهور الصراع بين الطبقات والعصبيات وليس للإرادة والحرية أي دخل، مع الإشارة إلى أن موقف ابن خلدون يحتمل التدخل الإلهي فتتعقد الأمور في نظريته .

فما هي العوامل التي تؤدي إلى ظهور الصراع بين الحضارات في نظرية هنتنغتون ؟ سنحاول ورقتي الإجابة عن هذا السؤال ، والإجابة التي سأقدمها مفادها : أن المتحقق لا يجد عند هنتنغتون نظرية إما على شاكلة نظرية ماركس أ على مثال نظرية ابن خلدون ، وإنما تعميمات حدسية تظهر بمظهر النظرية العلمية Pseudo-scientifique وتدعمهما أحداث تاريخية قد تكون شواهد لأية نظرية أخرى . من الشروط الاساسية للبراديم العلمي عند كون أن تبرهن النظرية المقترحة أنها تفسر تلك الشروط بأفضل

ما تكوز ولكن هنتنغتون لا يجنح نحو تحقيق هذه المهمة، بل يتركها فرضية ثم يطلق لنفسه العنان متقفيا اثار رؤيته على مجرى الأحداث في العالم . يعتبر أن " الثقافة والهويات الثقافية هي أشمل الهويات الحضارية ، وهي التي تقف وراء الاتحاد والانفصال والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة "3. والسبب وراء ذلك ، في نظره ، جوهري إذ تحاول الشعوب أن تعرف ذاتها ولا يكون لها ذلك من خلال عوامل أيديولوجية أو سياسية أ اقتصادية بل حضارية ، أي من خلال التاريخ والمتحد والدين واللغة والقيم الأخلاقية والعادات والمؤسسات ولكن أكثر هذه العوامل في تحديد الحضارة هو الدين. ويقسم هنتنغتون خريطة العالم إلى ثماني أو تسع حضارات مختلفة عن بعضها البعض ومعرضة للصراع الأوسع والأخطر الذي لا ينشأ نتيجة اختلاف في الطبقات الاجتماعية الغنية والفقيرة و غيرها من التجمعات الاقتصادية ، بل نتيجة انتماء هذه الشعوب إلى هويات حضارية مختلفة . والتجمعات التي يقصدها هنتغتون هي : الصينية واليابانية والهندية والإسلامية والارثوذكسية والغربية والكاثوليكية في أمريكا الجنوبية والأفريقية ربما 4.

لن أتوقف عند تعريف هنتنغتون للحضارة وللأسباب التي دعته ل تقسيم العالم إلى ذلك العدد المحدد من الحضارات ، لأن ملاحظاتي ستظهر بجلاء كاستنتاجات بعدما أبين مكامن الوهن في تلك النظرية . يعتبر هنتنغتون أن من حسنات نظريته أنها لا تضحي بالواقعية Realisme في سبيل الاقتصادية ، والاكتفاء بعدد قليل من الحضارات لا يزيد عن ثمانية يدل عل اقتصادية النظرية . إذا أنها لا تسمح للتجمعات في العالم ، التي تتنبأ مثلا بتشعب الصراعات بين التكتلات العالمية والوطنية والدينية والوطنية والدينية وغيرها بين الدول المتعددة في العالم. ولا تضحي بالاقتصادية في سبيل الواقعية كما تفعل النظريات التي تقسم العالم إلى عالمين : شمال وجنوب وعالم متقدم قيد التطور أو عالم الخير وعالم الشر وغيرها ، ولذا تسعى النظرية لتقديم التفسير الأفضل للعالم بعد الحرب الباردة .

من بين هذه المنظومة من التجمعات تحتل الحضارة

الغربية التي تشمل أوربا الغربية وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزلندة المركز الأقوى بين الحضارات الأخرى في العالم وستبقى كذلك للمدى البعيد ، وإن يكن قد بدأت تفقد بعض قولها لصالح عالم الحضارات غير الغربية التي تزداد قوة باضطراد 5. ويضيف هنتغتون أن قوة الحضارة الغربية لم تكن تعتمد على تفوقها في القيم الأخلاقية أو المثل أو الدين ، وإنما لتفوقها في نشر العنف المنظم للسيطرة على الاخرين ، والذي قد يعتبر وصفا سياسيا منمقا للاستعمار الغربي في مراحله الأولى والتفوق العسكري في المراحل الراهنة، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والمنظومة الشيوعية . من النظريات المناوئة لتفسير ذلك الانهيار والنظام العالمي الذي تبعه ، نظرية فرانسيس فوكوما يا عن نهاية التاريخ كصراع أيديولوجي حسم لصالح الديمقراطية الليبرالية التي أصبحت النظرية السياسية الأحادية الصحيحة في العالم . ويعتبر هنتغتون أن نظرية فوكوما يا هي المنافس الأهم لنظريته لأنها تختزل الصراعات المصيرية في العالم إذ ثبت بطلان النظريات المناهضة للديمقراطية الليبرالية انواحدة تلو الأخرى بما فيها نظرية ماركس عن ديكتاتورية البلوريتارية أو العمال ، وتحويل بلدان المحور الشيوعي الأساسي إلى الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق . ونظرية فوكوما يا ليست كما يسميها هنتغتون " طوباوية " أو مفرطة في التفاؤل حول عالم واحد وسعيد إلى الأبد بانسجامه ،6 وإنما هي نظرية سياسية مبنية على استنتاج نظري حول زوال النظريات المنافسة للديمقراطية الليبرالية. لقد اقترح كارل بوبر أن صحة النظرية العلمية لا تكون كما قال فيتغنشتين وكارنب وآير وغيرهم من المدرسة الوضعية المنطقية بالإثبات ((Vertificationوإنما بالدحض وإظهار بطلان النظرية (falsification) . ولطالما أظهرت الوقائع التي أدت إلى زوال الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ومنظومته بطلان النظرية الماركسية للتاريخ والسلطة فلم يبق سوى نظرية الديمقراطية الليبرالية وحتى الآن لم تظهر أية أدلة على بطلانها . وما يدل على صحتها أن المجموعات البشرية التي تتحرر من سيطرة الأيديولوجيات غير الديمقراطية تقبل طوعا وبمحض إرادتها على تبني الديمقراطية الليبرالية . والبلدان التي لا تزال شيوعية مثل

الصين قد بدأت تفتح أبوابها وأسواقها الاقتصادية للتعامل مع الغرب وتبني وسائل غربية في الإنتاج والإرادة وفي السياسة . وما تقدم هذه الدول رويدا رويدا نحو التحديث والانفتاح إلا ليجعل الاحتمال في تحولها لاحقا إلى تبني الديمقراطية الليبرالية أمرا غير بعيد المنال .

لقد انتقد هنتنغتون نظرية فوكوما يا غير مرة وعلى عدة صعد وأجاب فوكوما يا على انتقادات هنتنغتون على صفحات الإنترنت في عدة مناسبات خاصة ليوضح بأنه لم يقصد ليعطي الانطباع بأن الصراع السياسي والحروب ستنتهي بمجرد الانتقال إلى الديمقراطية الليبرالية ، وإنما ليحدد الوجهة التي تسير نحوها التاريخ بعدما تأكد فوز الديمقراطية. ففي نظر فوكوما يا ستسعى البلدان غير الديمقراطية لتصبح ديمقراطية ، لأن "النظرية التي بقيت وحدها واقفة ولم تتهافت في علم السياسة هي الديمقراطية . وستنهض شعوب تلك الدول عاجلا أم آجلا كما نهضت شعوب الاتحاد السوفياتي ، لتطالب بالحرية والمشاركة في صنع مصير بلدانها على أساس المساواة في الحقوق والواجبات وفرض العمل . ولكن هنتنغتون يهزأ من هذه الأمنية المبنية على الاستعلاء الغربي قائلا : "سيفاجأ الغربيون الذين يعتقدون بأن انهيار الإيديولوجية الماركسية في الاتحاد السوفياتي والتعديلات الجوهرية التي أدخلتها عليها الصين وفيتنام ستقود بالضرورة إلى استيراد تلك الشعوب الأيديولوجية الغربية والديمقراطية الليبرالية بمقدرة تلك الشعوب على الإبداع والصمود والفردية"7.

يرمي هنتنغتون الوليد مع ماء غسله ، ويرفض الأحادية التاريخية التي يتجه فيها العالم نحو الديمقراطية ، بل لعلل ينسبها إلى جوهر الحضارات التي يعددها في العالم ، فالدول الغربية مثلا تستطيع التقدم اقتصاديا وتبني سياسات ديمقراطية لإرثها الغربي المسيحي أما الحضارات الأخرى كالأرثوذكسية مثلا فافاق التقدم الاقتصادي والسياسي نحو الديمقراطية فيها غير مؤكدة 8 . أما في الدول الإسلامية ففرص التقدم فيها قائمة ويعزو السبب في ذلك إلى جوهر تلك الحضارات المتمثل بإرثها الديني. فما الذي يضطر هنتنغتون لإصدار مثل هذه الأحكام التشريعية ؟ لقد اشاد هنتنغتون بواقعية نظريته واقتصادها مما يضفي على تلك النظرية بعد

الاعتدال أشبه بالاعتدال في نظرية أرسطو للفضيلة التي هي وسط بين طرفين كل منهما هو شر بذاته . ولكن يبدو أن رغبة هنتنغتون في الاعتدال أدت به إلى اقتراح عدد من الحضارات كيفما شاء فقط ليبرر اعتقاده المسبق a priori عن صراع الحضارات . ففعل كما فعل الفيثاغوريون الذين كانوا يؤمنون " أن العدد الكامل هو العشرة لأنه مؤلف من الأعداد جميعا وحاصل على خصائصها جميعا ، فيلزم أن الأجرام السماوية المتحركة عشرة (لأن العالم كامل وحاصل على خصائص الكامل). ولكن لما كان العالم المعروف المنظور منها تسعة فقط ، فقد وضعوا أرضا غير منظورة مقابلة لأرضنا إلى أسفل ليكلموا العدد إلى العشرة "9.

يظن هنتنغتون أن تقسيمه الحضارات في العالم على أساس ديني إلى ثمان مجتمعات هو أقرب إلى الواقعية ، فأية واقعية يقصد ؟ كيف يجعل أساس الحضارات الدين ومن ثم يميز من جهة بين المسيحية الأرثوذكسية التي تنشئ لنفسها حضارة في أوربا الشرقية وبلاد روسيا أ الشعوب السلافية والمسيحية من جهة أخرى في أوربا الغربية ، التي يشترك في العيش فيها اتباع البروتستانية والكاثوليكية والأرثوذكسية كما هي الحال في اليونان التي أنشأت الحضارة الغربية المختلفة عن الحضارة الأرثوذكسية ؟ والأكثر تعقيدا هو أن هنتنغتون يفصل بين المسيحية في أوربا وأستراليا ونيوزلندة وأمريكا الشمالية عن المسيحية الكاثوليكية في أمريكا الجنوبية التي تنتمي إلى حضارة مختلفة هي الأخرى . لقد أدى الدين الواحد في نظر هنتنغتون إلى نشوء ثلاث حضارات مختلفة . فإذا كان الدين هو المعاصر الأهم في مفهوم الحضارة عند هنتنغتون فالأساس هو أن يكون الدين العامل الموحد في الحضارة بصرف النظر عن العوامل الأخرى كاللغة والمكان والزمان . ولكن يبدو أن رغبة هنتنغتون في الاعتدال قد أدت به إلى إعادة هندسة الخريطة الحضارية عشوائيا لتناسب مع تصوره الذي يفرضه على العالم ، فوقع بالتالي ليس في الانتقائية واللاموضوعية فحسب ، وإنما في الافتراض التشريعي على ما يجب أن يكون عليه العالم . وأفضل ما يمكن أن يقال عن هذه الانتقائية إنها مزاجية وذاتية Subjective .

ومثلما يشرع لوجود الحضارات مزاجيا وكما يشاء ، يحكم

على اتباع الحضارات حول استعدادهم لتقبل الديمقراطية أو استحالته أيضا بنفس الطريقة ضاربا بعرض الحائط الوقائع التاريخية . فأبناء الحضارة الغربية مطبوعون على الديمقراطية ، أما الأرثوذكس فأملهم في تحقيق الديمقراطية ، ولماذا ؟ كيف يمكن أن تكون تلك الملاحظات استنتاجات من نظرية هنتنغتون حول صراع الحضارات وليست افتراضات ما قبلية ومسبقة عن تلك الحضارات افترضها هنتنغتون بسبب أحكام مسبقة؟ ولكن فلنسلم جدلا أن هنتنغتون على حق وأن نظريته هي تصف الواقع الحضاري أفضل من أي نظرية مقترحة أخرى ، ولنفرض أيضا أن هنتنغتون على حق في رفضه لنظرية فوكوما يا لأحادية المسار في التاريخ. ولكن ألا يمكننا أن نزيح ستار الجهل بالتاريخ عن أعيننا ؟ و هنتنغتون الذي يرفض أحادية مسار التاريخ أخرى به أن ينظر إلى التاريخ ليس كمن يقبع في مغارة أفلاطون تسمر رقبته سلاسل أبدية في وجهة لا يمكن الحياد عنها . يعتقد هنتنغتون أن الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة التي أدت إلى نشوء أيديولوجيات متعددة ضمت منها في القرن العشرين الليبرالية والاشتراكية والفوضوية والماركسية والشيوعية والاشتراكية والديمقراطية والمحافظة والقومية والنازية الديمقراطية المسيحية وغيرها ، ولكنها لم تكن مهدا لديانة واحدة أسوة ببعض الحضارات غير الغربية . ولكن ليس هنا بيت القصيد . الحضارة الغربية لم تعرف الديمقراطية الليبرالية إلا في القرن السابع عشر مع جان لوك ، ولم تصبح حقيقة إلا بعد إعلان إنجلترا مملكة دستورية غداة الحرب الأهلية بعد منتصف القرن السابع عشر ، وما انتشرت الديمقراطية إلا بعد الثورة الفرنسية في فرنسا والثورة الأمريكية في الولايات المتحدة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، مما يدل على أن نشوء الديمقراطية لم يكن أمرا طبيعيا في الحضارة الغربية ولم يكن أمرا تم اكتسابه نتيجة تطور طبيعي بعيد عن الصراع الدموي . كما لم يكن طريق الديمقراطية مفروشا بالورود دائما حتى بعد تحول المجتمعات إليها . وخير مثال على ذلك تعد الجمهوريات الديمقراطية في فرنسا بعد الثورة الفرنسية التي تبع إعلانها زمن الرعب ليحولها بونابرت بعد ذلك إلى ديكتاتورية ملكية ومن ثم تتحول إلى ديمقراطيات مع تعدد الجمهوريات في

فرنسا .

ولطالما أن الديمقراطية الليبرالية لم تكن ملازمة للحضارة الغربية دائما ، فما الذي يمنع الحضارات الأخرى التي لا تزدهر فيها الديمقراطية ن أن تزدهر فيها لاحقا وما الموجب لعدم تداعي الديمقراطية حيث هي الآن إلى أشكال غير ديمقراطية9 وعلى سبيل المثال فالحضارة الأرثوذكسيه لم تعرف الديمقراطية قبلا في عصر القياصرة ولا في عصر الشيوعية ولكنها الآن تطلب التمثيل الديمقراطي وتحاول جهدها في ذلك رغم أنه لم يطل بها الزمن بعد ، فربما بعد مرور مئات السنين ستتأصل فيها الديمقراطية كما تأصلت في الغرب . وكذلك الأمر مع الحضارة الإسلامية التي لها تاريخ أطول بكثير من الحضارة الأرثوذكسية ، وقد عرفت تلك الحضارة في نشأتها الأولى فترة الخلفاء الراشدين كانت الخلافة أو الرئاسة الدولة تختار بالشورى وليس بالوراثة . وتجدر الإشارة العابرة في هذا الصدد إن د. أحمد الطيب ، مفتي الديار المصرية، قد اشار في دراسة رصينة نشرت في جريدة الخليج عدد 8335 الجمعة 15 مارس 2002 إلى أن " الأحكام الدستورية لم يقرر فيها القران اكثر من ثلاثة مبادئ : الشورى والعدل والمساواة " 10 . ففي إصداره مثل هذه الأحكام يجافي هنتنغتون التاريخ والواقع ، الا اذا كان باستطاعته ان يبين كيف يمكن الحصول على هذه الأحكام كنتائج ضرورية صادرة ع نظرية صراع الحضارات التي لا تؤرخ للواقع ، وإنما تصفه وتفسره . ولكن ما يمنع من يعتنق الإسلام من اعتناق الديمقراطية ؟ وحتى الديمقراطية ذاتها التي هي في الغرب ؟ إن عدم حصول مثل هذا الجمع لا يدل على استحالته ، كما يظن هنتنغتون . ولقد رأينا على سبيل المثال دولة البحرين تتحول حديثا إلى مملكة دستورية يتمتع كل أبنائها بالمساواة أمام القانون وانتخاب ممثليهم وغيرها من الحريات العامة المماثلة في البلدان الديمقراطية الغربية ، بالإضافة إلى أن ملايين من المسلمين يعيشون في أمريكا وإنجلترا وغيرها من البلدان الأوربية ويتمتعون بنفس الحقوق والواجبات كغيرهم من المواطنين ولم تصدر أية أحكام عن مراجع دينية موثوق بها تنفي الإسلام عن هؤلاء الناس أو تشكك بإسلامهم؟ وفي الواقع يسبب هؤلاء المسلمون الحرج لنظرية هنتنغتون ، فماذا تعتبرهم النظرية : مسلمون أم غربيون ؟

إذا كانوا مسلمين فكيف يكونون ديمقراطيين ؟ وإن كانوا غربيين فكيف يكونون مسلمين ، طالما أن الجمع بين الإسلام والديمقراطية مستحيل ؟ لا تستطيع نظرية هنتنغتون لها بواسطة نظريته الديمقراطية مع الغرب المسيحي هو نتيجة عامل الدين فيها أم لا . كما إن إرجاع ظهور الديمقراطية في الغرب لى عامل الدين والدين المسيحي ليثير القشعريرة في كيان أمثال فولتير وغيره من الفلاسفة الذين كان لنقدهم اللاذع لسيطرة أهل الدين على الشؤون العامة والسياسية أبلغ الأثر في ظهور الروح الديمقراطية التي وضعت حدا لسلطة الأكليروس وتعسف الملوك في أوربا .

يبدو أن نظرية هنتنغتون ليست مزاجية فقط وإنما تختزل تاريخ ظهور الديمقراطية وتطورها وتضرب عرض الحائط كليا بالجهود المضنية التي بذلت في سبيل بلورة مفهوم الديمقراطية وتحقيقها في أوربا والعالم . والاستنتاج الذي نتوصل غليه هو أن نظرية هنتنغتون ليست بالواقعية التي يراها ، بل هي فرضية تشريعية . كما أنها ليست اقتصادية البتة إلا على حساب الموضوعية ، فليس هنالك من داع لاعتبار دولة روسيا وغيرها من دول أوربا الشرقية أرثوذكسية طالما أن الأرثوذكسية فيها ليست عاملا تعريفيا . ففي زمن الشيوعية لم يستخدم الروس الأرثوذكسية لتعريف أنفسهم ولا يبدو الأمر كذلك الآن بعد زوال الشيوعية . إن نظرية هنتنغتون ترفع من شأن الأرثوكسية في البلاد الصربية حين لا تعير هذه الشعوب أمر الأرثوذكسية شأنا بالغ الأهمية إ في قوانينها أو في سياساتها ، تماما كما لا تعير الدول الغربية المسيحية شأنا كبيرا ، إذ نرى دولة كاثوليكية مثل إيرلندا تختار قانونا للتنظيم العائلي مخالفا لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ومواقفها وحتى لمواقف الحكومة الإيرلندية نفسها الداعم للسلطة الكنيسة .

الانتقاد التالي الذي يمكن الاعتراض به على نظرية هنتنغتون هو أن النظرية لا تستطيع تفسير الحقائق التي من أجلها وضعت . يعتبر هنتنغتون أن نظريته هي أفضل النظريات في تفسير الحقائق السياسية في العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وزوال حرب الباردة ، والنظرية بالتالي تفسر الصراع الدائر بين الحضارات وتتكهن عن حصول صراعات حضارية بين دول تلك

الحضارات : " ستغيب عن العالم غير الغربي الإيديولوجيات التي انتشرت في الحضارات الغربية وستحل مكانها أشكال من الهويات والالتزامات المبنية على الثقافة والدين وستتحول بؤر الصراع التي غذاها الغرب من صراعات داخل الحضارة الواحدة إلى صراعات في الدين والثقافة بين الحضارات "11 . فالسؤال الذي يطرح نفسه هو : لماذا ه الصراع وهل هو صراع حتمي ؟ ما هي العوامل أ الآلية التي تؤدي إلى هذا الصراع ؟ يسهب هنتنغتون في وصف السياسة العالمية التي يعاد صياغتها وهندستها وفقا لخطوط ثقافي : " شعوب ودول ذات ثقافات متشابهة تتحد مع بعضها البعض وشعوب ودول ذات ثقافات مختلفة تتفكك وتنفصل ع بعضها البعض ، تحالفات تحددها الإيديولوجية وعلاقات الدول الكبرى تنهار لتحل محلها تحالفات تحددها الثقافة والحضارة ، الحدود السياسية يعاد رسمها باضطراد لتطابق مع الحدود الثقافية ـ اثنية ودينية وحضارية المجتمعات الثقافية تأخذ مكان تكتلات الحرب الباردة والخطوط الفاصلة بين الحضارات أصبحت المحاور الرئيسية للنزاع في السياسة العالمية "12 .

في هذا العالم الجديد ، كما يرى هنتنغتون ، يجد الإنسان نفسه في أزمات الهوية ويضطر للجوء إلى الآخرين الذين يشتركون معه في علاقات الدم والقربى والإيمان والعائلة ، ويهرع الناس في تلك الأزمات ليتحدوا مع الآخرين الذين يشاركونهم المحتد والدين واللغة والقيم والمؤسسات ويبتعدون عن الآخرين الذين يختلفون عنهم في تلك العلاقات. يشعر قارئ الفصل الثالث عن النظام الناتج من صراع لحضارات في كتاب هنتنغتون كأنه يقرأ كتاب ثوكيديس Thucydidis عن الحرب الأهلية في الحرب البلبونيز وبنفس المأساوية . ولكن عند ثوكيديس ننتج المأساوية في الحرب الأهلية من حتمية تاريخية تحددها مقدمات الحرب الأهلية التي يشترك فيها الناس أينما كانوا وفي أي عصر كانوا . الحتمية التاريخية عند توكيديس تماثل الحتمية التاريخية عند إبن خلدون وعند ماركس وهي التي تؤدي إلى الصراع وإلى نتائجه الوخيمة حالما تجتمع المقدمات الضرورية . أما عند هنتنغتون فليس هناك مقدمات ومع هذا توجد نتائج صراعية مصدرها الثقافة أو الحضارة ويرجعها إلى خمسة عوامل :

1ـ تعدد الانتماءات عند الشخص مثل : العائلة ، المهنة ، المدينة والتربية وغيرها . وكلما ميز الناس بين بعضهم البعض على تلك الأسس كلما ازدادت مناسبات النزاع بينهم .

2ـ ازدياد التعلق بالثقافات الأصلية للشعوب .

3ـ تحديد الهوية لا يتم إلا من خلال تحديد " الآخر " المختلف الهوية في الحضارة والثقافة .

4ـ إن أسباب النزاعات بين الدول في الحضارات المختلفة هي ذاتها التي كانت تسبب النزاع بين الجماعات مثل : حب السطوة والتملك والثروة والمصادر الأولية والقوة .

5ـ الكراهية التي يتطلبها حب الذات لاختراع أعداء مثل : التسابق لكسب المال والتباهي في الإنجازات والتخاصم السياسي .

كل هذه العوامل تقود إل النزاع وإذا ما اجتمعت في مجتمع حضاري فستقود للصراع مع الحضارات الأخرى .

نلاحظ أن هنتنغتون يتخلى عن المستوى العلمي للنظرية ليعزو حدوث النزاع إلى ما هو شائع عن طبيعة النفس البشرية والثقافات ، بينما المطلوب تعليل نشوء الصراع الحضاري بشكل حتمي وضروري ، ومن دون هذه الحتمية تبقى النظرية عاجزة عن تفسير الصراع رغم كونها نظرية الصراع الحضاري . فإذا لم تكن هناك عوامل تؤدي حتما إلى نشوء الصراع فصراع الحضارات ليس حتميا وبالتالي تفقد النظرية علميتها وأهميتها في تفسير الواقع والتنبؤ بالمستقبل . فإذا كان الاختلاف لا يقود ضرورة إلى الصراع ، فهذا يعني أن العقل يمكن أن يسيطر على القوى الغضبية والشهوات النزاعية كما رأى أفلاطون قديما وهناك أمل في التعاون والانسجام بين الشعوب التي تنتمي إلى حضارات مختلفة . ولكن حتى لو سلمنا جدلا أن نظرية هنتنغتون تثبت قطعا أن الاختلاف منشؤه ائتلاف حضاري إضافة إلى عوامل نفسية متجذرة في الإنسان كالغضب والحقد والكراهية فلن تسلم نظرية هنتنغتون من التبعثر والتفكك بشكل يجعل اقتصاديتها أمرا مستحيلا ، فإذا كان الاختلاف الحضاري يقود حتما إلى الصراع فمتى ينتهي وأين ينتهي؟ وإذا كانت هناك كما يقول هنتنغتون ثماني أو

تسع حضارات في العالم ، فلن تهدأ أية حضارة من الصراع إذ بمجرد ما تنتهي من تصادمها مع حضارة ما فإنها ستعود للتصادم مع حضارة أخرى وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية ، وليس هناك أمل بالسلام ولا بالانتصار ، إذ ما هي غاية النصر أو السلام ؟ فكل انتصار سيكون وقتها ومن المحتم أن تعود الحضارة الخاسرة أو المنكسرة لتعيد الكرة وتسترجع كرامتها السليبة . وحتى الحضارة المنتصرة إذا لم تجد حضارة قوية تتصادم معها ستعرض للصراع الداخلي ، لأن أساس الصراع نفسي أيضا ، فينتظر أن تنقسم الحضارة الواحدة على نفسها وتشهد صراعا داخليا بين المذاهب أو المدارس أ الجماعات العرقية وحتى القبائل والعائلات والأفراد ، فالاقتصادية التي بنسبها هنتنغتون إلى نظريته تتبخر وتفقدها علميتها ومصداقيتها ولن تكون هناك نهاية للصراع طالما أن العوامل هي هي لا تتغير : فإن لم تكن ثقافية فستكون نفسية أو الأمرين معا .

النتيجة التي توصلنا إليها في هذه الدراسة تدل على أن نظرية هنتنغتون حول صراع الحضارات واهية لعدة أسباب :

أولا : أنها غير قادرة على تفسير نشوء الصراع الحضاري .

ثانيا : أنها غير متماسكة (Incoherent) فالنظرية قد تقود إلى عكس المطلوب أي إلى الانسجام الحضاري إذا توافرت الضوابط العقلية والنوايا الحسنة والإرادات الخيرة التي تهدف إلى بناء عالم آمن للجميع .

ثالثا : أنها تقود إلى صراع غير متناه بين الحضارات أو داخل الحضارة الواحدة مما يفقد تعريف هنتنغتون للحضارة معناه ويجعل النظرية بعيدة كل البعد عن عامل الاقتصاد الذي نسبه هنتنغتون لنظريته .

وما يدل على وهن النظرية بعض الملاحظات التي يطلقها هنتنغتون ظنا منه أنها استنتاجات من وحي نظريته مثل قوله بأن انتشار الديمقراطية الليبرالية بين الحضارات الأخرى مثل الأرثوذكسية غير مؤكد، أما في الحضارة الإسلامية فإنه يدعو إلى شبه اليأس . فما تعني هذه الملاحظات في ضوء نظريته ؟ إنه يتخلى كليا عن نظريته ويتبنى ضمنيا نظرية خصمه فوكوياما ليقدم

تلك الملاحظات . فهو يشارك عن غير عمد أو وعي فوكوما يا الذي يفترض أن التاريخ كله يسير باتجاه تبني الديمقراطية الليبرالية ومن هذا المنظار يحكم على الحضارات الأخرى . ولكن بينما نرى فوكوما يا متناسقا مع نظريته ، ولا يقطع الأمل بوصول أية حضارة لتبني الديمقراطية كما أشار في مقابلة نشرت في الخليج الثقافي 4 مارس 2002 ، يقطع هنتنغتون الأمل بوصول تلك الحضارات إلى الديمقراطية ، ولكن حتى لو لم تصل هذه الحضارات إلى الديمقراطية ، فأين وجه الضعف أو المشكلة ؟ ولماذا يكون ذلك أمرا مؤسفا بالنسبة لهنتغتون أو من يؤمن بنظرية هنتنغتون ؟ على العكس تماما ومن منطلق نظرية هنتنغتون لا ينتظر من الحضارات أن تبني نفس المؤسسات السياسية وبالتالي لا يجوز الحكم عليها سلبا أو إيجابا من مدى تعلقها بالديمقراطية أولا ، التي هي كما يعتقد هنتنغتون إنجاز للحضارة الغربية ، لأن لكل حضارة تاريخها وتقاليدها وغاياتها تحي بها وتتطور ، وهذا ما تؤكده نظرية هنتنغتون ، والاختلاف السياسي والمؤسساتي هو جزء مفهوم ومقبول وليس هناك ما يدعو للقلق من وجود الاختلاف في الأنظمة السياسية للحضارات ، لأنها نتيجة طبيعية للاختلاف بين الحضارات . وليس هناك داع للخوف أيضا من نشوب الصراع بين تلك الأنظمة المختلفة ، لأن النزاع لن ينشب تلقائيا وحتميا ، ونظرية هنتنغتون لا تثبت حتمية الصراع كما وجدنا . فإذا لم يكن الصراع حتميا فالتعاون أيضا ليس حتميا ويمكن للإنسان أن يختار الواحد بدل الآخر. النزاع ينشأ فقط عندما يؤمن الناس بأن الصراع حتمي ولا خيار أمامهم ، وعندما يعتقدون بأنهم مسيرون ومجبورون على القيام بأعمال تمليها عليهم إرادات أخرى ، وليست إراداتهم هم . إذن ما يحدد الصراع أو يرحب الانسجام ليست هي الحضارة أو الثقافة أو أية أمور أخرى ، بل الإرادة الحرة التي توجه الإنسان نحو غاية محددة دون غيرها .

العبرة التي تستخلصها من هذه الدراسة هي أن نظرية هنتنغتون ليست براديم علمي أو نظرية علمية لأنها لا تستوفي الشروط التي وضعها كون لنظرية العلمية . أعتقد أنه قد يكون من الأجدى وضعها على أنها تصور تنظيري يدور حول استعارة تأملية أو تركيبة تقريبية لصراع الحضارات في العالم . وككل

الاستعارات والتركيبات التقريبية قد يجدها البعض مفيدة في فهم بعض الأحداث التي تحدث في العالم وقد يجدها البعض الآخر بعيدة كل البعد عن فهم الحقائق التي تحاول وصفها وتأويلها . وبالتالي يجب وضعها في هذا الإطار وليس في الإطار العلمي أو فلسفة العلوم الذي يصبو إليه هنتنغتون كي يعطي نظريته أهمية لا يمكن أن تكسبها أصلا .

ومن منظاري الفلسفي أجد تلك الاستعارات خطرة ليس لأنها تحمل نارا في طياتها ، بل لأنها تظهر بمظهر النظرية العلمية فتخدع الناس ويصدقونها ويتصرفون على أساسها . فتثير الحمية فيمن يؤمن بها أو الرعب والخوف فيمن لا يؤمن بها فتقود إلى صراعات تحالفات واهية تعبق تقدم الشعوب . إن تأثير مثل هذه الاستعارات يشبه الخداع في نظرية برتراند راسل للرغبة ، إذ أن الاعتقادات الخاطئة تقود الرغبة إلى وضع مقاصد ثانوية لها ، لا يغني تحقيقها عن المقاصد الأولية للرغبة الأولى والحقيقية التي هي السبب في وضع الإنسان في الدرجة الأولى مقاصد يظن خطأ إنها ستشبع الرغبة الأولية ، ولكن عدم إشباع الرغبة يدل دلالة واضحة على خطأ تلك الظنون . وما يحصل في هذا الوقت ، تكون الأهداف الثانوية قد صرفت الإنسان عن الأهداف الحقيقية لرغبته الأولية فتنعقد الأمور ولا يمكنه الخروج من تلك المتاهة إلا بالمعرفة الحقيقية لرغائبه الأولية ملحقا صدمها وفي محاولة الإنسان الدخول إلى تلك المعرفة ، يصبح الانجرار والاستعارات تظهر بمظهر الحريات العلمية أمرا خطيرا وغير محمود العواقب.

الهـوامـــش

1- Samuel P.Huntington, « The Clash of Civilizations and the Remarking of World Order », (London : Simon and Schuster, 1998).

2- Thomas Kuhn, « The structure of scientific Revolutions, (Chicago : University of Chicago Press, 1962), pp17-18.

3 - Samuel P.Huntington, « The Clash of Civilizations and the Remarking of World Order », (London : Simon and Schuster, 1998).

Thomas Kuhn, « The structure of scientific Revolutions, (Chicago : University of Chicago Press, 1962), pp17-18.

3 ــ هنتنغتون ، صـــراع الحضـــارات ، ص : 20 .

4 ــ المرجع الســـابق ، ص : 43 .

5 ــ المرجع الســـابق ، ص : 29 .

6 ــ المرجع الســـابق ، ص : 33 .

7 ــ المرجع الســـابق ، ص 33 .

8 ــ المرجع الســـابق ، ص 29 .

9 ــ يوسف كرم ، تـــاريخ الفلســـفة اليونانيـــة ، بـــيروت : دار القلـــم ، طبعـــة جديدة، ص 25 عن أرسطو ما بعـــد الطبيعـــة م 1 ف 5 ، وكتـــاب الســـماء م 2 ف 13 .

10 ــ مجلة الخليج الثقـــافي عـــدد 8335 مـــارس 2002 ، ص 14 .

11 ــ هنتنغتون ، صـــراع الحضـــارات ، ص 54.

12 ــ المرجع الســـابق ، ص 125.

13 ــ مجلة الخليج الثقـــافي مـــارس 2002.